

(٢٧)

د . علي حسني الخربوطلي

الحضارة الإسلامية



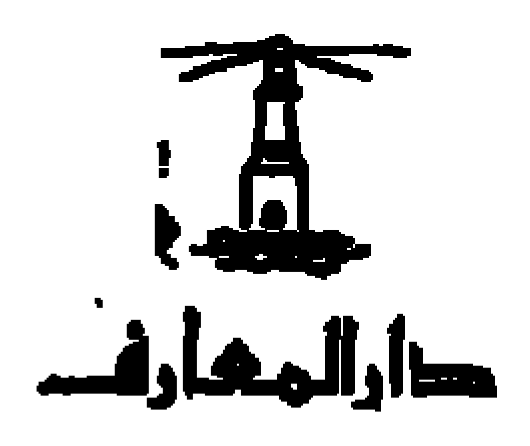
دار المعارف

كتابك (٢٧)

رئيس التحرير: أنيس منصور

د. على حسنى الخربوطلى

الحضارة الإسلامية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمر الأمة الإسلامية الآن فى لحظات انتقال تاريخىّ حاسم ، فقد تركت وراءها رواسب الحكم العثمانى ، ومؤثرات العصور الوسطى ، وشوائب الاستعمار الأوربى ، وبدأت فى القرن العشرين عصراً زاهراً ، ويقظة حضارية ، تعمل من خلالها على وصل الماضى التليد بالحاضر المجيد ، وتتطلع إلى المستقبل السعيد ، مستفيدة من القيم الإسلامية ، ومن نظم الإسلام وحضارته. إن الكفاح الإسلامى المشترك ، ووحدة مواجهة الأخطار الإلحادية والمادية ، والمصلحة الإسلامية الواحدة فى التكتل ضد هذه الأخطار ، تحتم كلها اتحاداً إسلاميًّا ، على أسس من الحضارة الإسلامية العريقة الزاهرة

والأمة الإسلامية ، وهى تتطلع الآن إلى المستقبل المشرق الباسم ، الموحد المتحرر ، المتجدد المتطور ، عليها أن تسلط أضواء كاشفة على جوانب حضارتها الإسلامية ، وأن تستفيد من التجارب الإنسانية الكثيرة التى مرّت بها عبر العصور التاريخية ، حتى تدرك أن حضارتها تراث أحقاب ، ونتاج أجيال ، وواقع حياة ، وحتى تعرف الأمة

الإسلامية دورها السالف الب ور في الموكب الحضاري العالمي . .

وهذا الكتاب يلقي أضواء ساطعة على الحضارة الإسلامية . والحديث عن هذه الحضارة الشاملة العريقة شائق وممتع ومفيد . ولكنه طويل ، ويحتاج إلى مجلدات كثيرة . توضح جوانب هذه الحضارة الزاهرة وأمجادها وقد رأينا — في كتابنا الصغير — أن نقدم للقراء أقباساً من أنوار حضارة الإسلام . فدرسنا مولد هذه الحضارة . وفجر تاريخها . وانتصاراتها على الحركات المضادة التي واجهتها في أول طريقها العالمي الإنساني . ثم درسنا مقومات الحضارة الإسلامية وأسسها وخصائصها . وشهدنا انطلاقتها إلى العالم . وأثرها في المجتمعات وفي الحضارات الإنسانية . وموقفها من الحضارات الأخرى . ثم رأينا الحضارة الإسلامية تصبح أساساً للمجتمع الإسلامي الكبير الذي قام بعد الفتوح العربية الواسعة . في آسيا وإفريقية وأوربا . ودرسنا كفاح الحضارة الإسلامية في مواجهة بعض أعدائها . كتيارات الشعوبية والزندقة ، والخطرين : المغولي والصليبي ، وانتهينا إلى دراسة دور الحضارة الإسلامية في العالم المعاصر . واتجاهاتها لتحقيق السلام العالمي والرخاء البشري .

وأرجو أن يجد كل مسلم . وكل عربي . وكل شرقي . الفائدة العلمية المرجوة . في هذا الكُتيِّب . إنه عز وجل وليّ كل توفيق . .

المؤلف

١ - الفجر

كان مولد الحضارة الإسلامية فى مكة ، بعد أربعين عاماً من حملة الفيل التى كان العرب يؤرخون بها أحداثهم ، حين نزل الوحى على محمد عليه الصلاة والسلام فى غار حراء يبشره بأنه رسول الله إلى العالمين ، وأنه حامل لواء الحضارة الإسلامية فى العالم أجمع .

اهتم المسلمون بتفسير كلمة (إسلام) ، فقال بعضهم إنه (الانقياد) ، أى انقياد المؤمنين للخالق العظيم . وقال بعض إن معناه (المسالمة) ، إذ جاء فى القرآن الكريم : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، وهكذا أصبح العصر السابق لظهور الإسلام (جاهلية) ، ثم بدأ عهد جديد ، هو عهد (الإسلام) دين (السلام) . ثم يصلون إلى كلمة (أسلم) المشتق من السلام ، بمعنى الانقياد ، حيث قال الله تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) ، وقوله : (فقل أسلمت وجهى لله) . وأصبح المسلم هو كل من أسلم وجهه لله ورضى بطاعته .

والدين أساس الحضارة ، والتاريخ يثبت أن المعرفة الإنسانية عبر العصور التاريخية ، تقدمت وتطورت ونضجت ، بتأثير الدين ، فالدين

خير مرشد للإنسان إلى طريق الحضارة ، والنهضة ، والتطور .

والإسلام عقيدة تخاطب الروح والعقل ، وتدعو إلى تهذيبهما وتنقيتهما من شوائب الجاهلية والرجعية ، والعقيدة الإسلامية تجمع بين الدين والدنيا ، وتهتم بالشئون الروحية والمادية ، وتحقق التوازن بينهما ، مما يميز الإسلام عن سائر الأديان ، والإيمان يبدأ بالروح والعقل ، ثم يضع المؤمن التعاليم الإسلامية موضع التنفيذ الإيجابى . والإسلام يحقق للمسلم احتياجاته النفسية والمادية ، والهدوء النفسى خير وسيلة ليعيش المسلم حياة عملية ناجحة ، وليمارس أعماله المادية ، وليمضى فى طريق الحضارة الزاهرة . .

لم تنجح اللغة العربية قبل الإسلام فى توحيد العرب ، وخلق مجتمع عربى متماسك ، ووحدة سياسية تجمع الجماعات العربية المتفرقة المتنابذة ، مما يوفر وسائل قيام حضارة ، تنعم بالاستقرار والسلام ، وتأخذ طابعها المميز . وكانت طبيعة بلاد العرب ، بما فيها من صحارى قاحلة ، وجبال وعرة ، وهضاب عالية ، وأودية عميقة ، تدعو إلى تباعد العرب وتمزقهم ، وتؤدى إلى صعوبة الاتصال والامتزاج الحضارى ، مما أدى إلى اختلاف اللهجات ، حتى أصبحت بعض هذه اللهجات وكأنها لغات بعيدة عن أصلها العربى .

وانشغل العرب بمشاكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتناسوا لغتهم ، وساعدت الأمية على إهمال اللغة العربية ، بل يرى

بعض أن الأغراض الاقتصادية والدينية طغت على الأغراض الأدبية فى سوق عكاظ .

أما وقد أصبحت اللغة العربية وحدها لا تستطيع أن توحد العرب وتجمعهم فى حضارة قومية عربية متحدة ، وتحت لواء سياسى واجتماعى واحد ، فكان لابد من أساس آخر تقوم عليه الوحدة العربية ، والدولة السياسية الموحدة ، والمجتمع العربى المتماسك ، ألا وهو الدين ، الذى يمنح مثلاً أعلى فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر ، ويقضى على الرذائل الاجتماعية والتقاليد الجاهلية ، ويحقق وحدة دينية تكون طريقاً لوحدة حضارية .

وكانت الحياة الدينية فى بلاد العرب تتصف بالفوضى لتعدد الأديان والمذاهب .. فكانت هناك الوثنية التى قامت أحياناً على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والرعد والبرق وغيرها . ونظر كثير من العرب إلى الأصنام والأوثان على أنها رمز للقوة الطبيعية . وكان البدو يمارسون وثنيتهم كتقاليد اجتماعية متوارثة من الأجيال السالفة دون فلسفتها أو معرفة أصولها ومغزاها . وكانوا بصفه عامة أميل إلى التحرر من كل دين ، والاتجاه إلى الانطلاق الاجتماعى والخلقى الذى يؤدى إلى فوضى خلقية ، وقد وصف القرآن الكريم الأعراب بأنهم أشدّ كفراً ونفاقاً .

وقبيل الإسلام ، فقدت الوثنية معناها الأول ، وتغيّر جوهرها ، وأصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام . وانتشرت المجوسية على

سواحل الخليج الفارسي . وظهرت فى الجزيرة العربية ثلاث حركات للإصلاح ، هي اليهودية والمسيحية والحنيفية ، حاولت أن تجمع العرب حول دين واحد ، وتقضى على الاختلافات الدينية ، ولكن هذه الحركات أخفقت كلها ، وظلت بلاد العرب غارقة فى فوضى دينية . وتأخر حضارى ، لم ينقذها منهما سوى ظهور الإسلام .

وكانت الدعوة الإسلامية حركة إصلاحية أعظم تنقذ البشرية جمعاء من الاستعباد والفقر والرذيلة والتأخر الحضارى ، وثورة على النظم الرجعية القديمة التى تتنافى مع الإنسانية والحضارة . وكل ثورة إصلاحية لابد أن تلقى حركات مضادة ، تبعاً لسنة الحياة ، وتعبيراً عن الصراع بين القديم البالى ، والجديد الناهض ، وبين أنوار الحضارة وظلام الجاهلية الرجعية ، ولكن البقاء دائماً للأصلح والأنفع .

ومنذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام فى مكة ، لقيت الحضارة الإسلامية مقاومة وحروباً مضادة ، اتخذت أشكالاً وصوراً متعددة ، شنتها عليها قريش ، فقد لاحق القرشيون المسلمين بالاضطهاد والإيذاء ، فلم يحقق المسلمون آمالهم فى الحياة الاجتماعية والسياسية الموحدة ، فى ظلال الحضارة الإسلامية التى أتى بها القرآن الكريم الذى توالى نزوله فى مكة طوال ثلاث عشرة سنة .

وكانت قريش فى هذا العداء إنما تعادى الإسلام كعقيدة لها نظمها وحضارتها ومثلها العليا ، وكانت فى ذلك العداء تدافع عن لونها

الحضارى . وعن كيانها السياسى والدينى والاقتصادى والاجتماعى . فأصبحت القضية عند قريش قضية مصير . وأصبح الصراع – فى الحقيقة – صراعاً بين الحضارة الإسلامية . وحضارة قريش .

أما من الناحية السياسية . فقد أصبحت قريش قبيل ظهور الإسلام ، دولة جمهورية صغيرة ، لها السيادة السياسية على مكة . ولها زعاماتها . يتوارثها أبناؤها ، ولها مناصبها الرياسية المتخصصة التى تشبه وزارات اليوم . ولقريش برلمانها المشهور (دار الندوة) ، وعقدت قريش معاهدات اقتصادية مع الدول المعاصرة لها : فكانت هذه المعاهدات اعترافاً رسميًّا صريحاً بشخصية قريش الدولية .

أما من الناحية الدينية . فقد نصبت قريش نفسها حامية وراعية للوثنية . وأصبح الحج إلى الأصنام المنصوبة عند الكعبة ، وارتياد أسواق مكة ، يحقق إيرادات مالية سنوية ضخمة . كما اكتسبت قريش من إشرافها على الكعبة نفوذاً روحيًّا كبيراً . هذا فى حين يدعو الإسلام إلى التوحيد .

وإذا انتقلنا إلى حضارة قريش الاقتصادية ، نجد قريشاً تسيطر تماماً على النشاط التجارى فى الحجاز ، وتقوم برحلات الشتاء إلى اليمن ، ورحلات الصيف إلى الشام ، كما تحكمت قريش فى أسعار السلع العالمية ، ومارست الاحتكار والاستغلال فى ميادين الاقتصاد . على حين ينهى الإسلام تماماً عن كل احتكار واستغلال وجشع وطمع .

أما من ناحية حضارة قريش الاجتماعية ، فقد عاشت قريش حياة مادية بحتة ، فقد جمعت قريش الأموال الضخمة العائدة من التجارة والحج ، وانصرفت إلى حياة النعيم والرفاهية ، وعاش القرشيون فى لهو ومجون ، فى حين يتضور أبناء القبائل العربية الضاربة فى الصحراء جوعاً . وبذلك أصبحت قريش بعيدة تماماً عن الجوانب الروحية وعن المشاعر الإنسانية . واعتزت قريش بثرائها الواسع ، وبقوتها المادية ، فجعلت من نفسها قبيلة أرستقراطية تصنع نفسها فوق سائر القبائل . هذا فى حين أن الإسلام يحطم الحواجز والفوارق القبلية ، ويدعو إلى الأخوة والمساواة والتعاون والتعارف ، ويجعل التقوى والمواطنة الصالحة أساساً للمفاضلة بين البشر .

أصرت قريش على الدفاع عن حضارتها ، وقاومت الإسلام وما أتى به من حضارة . ثم كانت الهجرة ، وهى انتقال بالحضارة الإسلامية إلى أرض أكثر خصباً ، مما يحقق لها البقاء والنماء ، والانتشار والانتصار . وأهالى المدينة من الحضر ، سكان المدن ، وتؤهلهم عقليتهم لتقبل عقيدة التوحيد ، والحضارة الإسلامية ، فهم يعيشون فى طور الزراعة ، ويميل المجتمع الزراعى عادة إلى المحبة والتعاون والسلام .

وفى المدينة ، وبعد الهجرة ، بدأ تبلور الحضارة الإسلامية ، واتخاذها طابعها المميز المتكامل ، فقد توالى نزول القرآن الكريم ، حاملاً شرائع ومثلاً أعلى ، تهدى المسلمين إلى حضارة زاهرة — ونظماً راقية فى

السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر.

وبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام إرساء قواعد الحضارة الإسلامية ، وتطبيقها عمليًا ، بتنظيم المجتمع الجديد ، الذى سيحمل لواء الحضارة الإسلامية ، فى داخل الجزيرة العربية وخارجها ، فبدأ بعقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ثم كانت الخطوة الثانية ، وهى تحديد العلاقات ، والحقوق والواجبات ، بين المسلمين ويهود المدينة ، وتحررت وثيقة تاريخية ، كانت فى الحقيقة أول إعلان رسمى لحقوق الإنسان. فهى تقرر الحرية التامة ، فى الاعتقاد والرأى والعمل ، وهى ترسى قواعد السلام ، وقد أراد الرسول الكريم بهذه الوثيقة أن تكون المدينة وطناً للمسلمين واليهود ، ولا يؤثر اختلاف الدين فى الوحدة الوطنية ، بل يمكن التعايش الدينى.

وهكذا تمت خطوتا تنظيم المجتمع الجديد فى المدينة بعد الهجرة ، وأصبح الرسول عليه الصلاة والسلام على رأس جماعة كبيرة العدد ، آخذة فى النمو ، تتبع أسساً حضارية موحدة ، وأصبحت الرابطة الدينية- العاطفية والحضارية- تقوم مقام صلات الرحم والدم ، وأصبح الإسلام نظاماً سياسيًا إلى جانب كونه نظاماً دينيًا وحضاريًا.

كان من أبرز أهداف الإسلام ، محو الحضارة البدوية الجاهلية ، وإقامةُ حضارة اجتماعية جديدة راقية ، تقوم على الحرية والإخاء والمساواة ، وتسمو بالإنسانية ، وتقضى على الجهل والفاقة ، وتدعم روح

الجماعة ، وتقضى على الروح الانفصالية ، والإقليمية والفردية . وتحقق الزمالة الإنسانية ، والمشاعر العالمية .

وتهتم الحضارة الإسلامية بالفرد ، والأسرة . والمجتمع . وتحقق التضامن والتكامل فى المجتمع ، وتنظم الحقوق والواجبات . كما تعتنى أيضاً بالمرأة ، وترفع مكانتها وترد إليها حقوقها . وتجعلها عضواً نافعاً فى المجتمع ، كما تهتم الحضارة الإسلامية بكثير من القضايا الاجتماعية التى أهملتها المجتمعات القديمة ، العربية والفارسية والرومانية .

أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ، حامل لواء الحضارة الإسلامية ، والمصلح الاجتماعى الأول ، تنظيم المجتمع وتحديد العلاقات والحقوق والواجبات ، فكان يستمد من الشريعة الإسلامية روح قوانينه وتشريعاته ، ولما كان تنفيذ القوانين ورعايتها يحتاج إلى حكومة مسئولة ، فقد اهتم الرسول الكريم بإنشاء حكومة إسلامية مستنيرة ، ترعى قواعد الحضارة الإسلامية ، وعوّد الأهالى الحياة فى رعاية هذه الحكومة المركزية ، وأصبح الجميع شركاء فى المسئولية وفى رعاية القوانين والأحكام العامة ، وزالت الفوارق الاجتماعية القديمة ، وتضاءلت روح العصبية الجاهلية ، ونزعات الرجعية .

أصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة ، وقد مهدت هذه الرابطة الدينية إلى وحدة حضارية ، وقامت الدولة العربية الإسلامية ، على أسس الحضارة الإسلامية . وانتقل

الإسلام بالعرب من حضارة القبيلة . أو حضارة الإقليم . أو حضارة المدينة المستقلة . إلى حضارة الدولة الموحدة . وأدت وحدة الحضارة إلى وحدة قومية . وسياسية . واجتماعية .

وأقبل العرب على الحضارة الإسلامية . على أساس الاختيار الحر . فلا جبار أو إرغام . وأصبحت الرابطة الحضارية أقوى من الرابطة القبلية . أو الرابطة الإقليمية . وأنعشت الحضارة الإسلامية الروح القومية والشعور الوطني . مما افتقده العرب قبل ظهور الإسلام . وأصبح الرسول عليه الصلاة والسلام رمزا لمذهب حياة متحضرة جديدة . متقدمة ناهضة . تحقق السعادة في الدنيا والآخرة .

اصطدمت الحضارة الإسلامية في المدينة . والحضارة اليهودية . البالية المحرّفة . وقد أبدى اليهود عداءهم للإسلام وحضارته . منذ الهجرة . وزاد العداء بعد ازدياد عدد المسلمين . وتبلور الحضارة الإسلامية . والحضارة اليهودية حضارة أرستقراطية دينية . تدعو إلى التعصب العنصري . فقد زعموا أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه . والحضارة اليهودية أيضاً تتصف بالمادية الواضحة . فقد امتلك يهود المدينة ضيعات واسعة . اتبعوا في زراعتها النظم الإقطاعية . وعملوا قبل الإسلام على تسخير عرب المدينة في زراعتها . حتى أصبحوا رقيقاً للأرض . كما احتكر اليهود الصناعة والتجارة في المدينة . وأقاموا مصانع الأسلحة . يبيعونها للقبائل المتصارعة . تشجيعاً لهم على الاستمرار في

حروبهم القبلية الدامية . ودافع المسلمون عن حضارتهم ؛ ووقفوا أمام روح اليهود الفردية والانفصالية ، التى هددت الوحدة الحضارية ، والسياسية والاجتماعية ، التى قامت فى المدينة .

أكد الإسلام ، منذ ظهوره ، وفى حياة الرسول ؛ أنه دين عالمى إنسانى ، وصالح لكل زمان ومكان . وهو صالح لكل جنس ، ولكل عقل ، ولكل درجة من درجات الحضارة . والإسلام حضارة عامة شاملة ، ترقى بحياة الإنسان الدنيوية ، وتحقق تقدم البشرية ، وتعالج المشاكل السياسية والاجتماعية ، وتدعو إلى الإخاء والاتحاد والحرية والمساواة .

وكل ثورة حضارية وإصلاحية – كما ذكرنا – لابد أن تواجه حركات مضادة ، وفى أواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بدت بوادر حركة مضادة جديدة ، هى حركة الرِّدَّة ، ما لبثت أن اتسع نطاقها ، وازداد خطرها بعد وفاة الرسول ، حيث انتشرت فى أرجاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية ، حركات كثيرة ، اختلفت فى بواعث قيامها ، وفى صورها ، وزعاماتها ، ولكنها كلها إتفقت فى أنها قد أصبحت خطراً يهدد الحضارة الإسلامية ، والوحدة الدينية والإجتماعية والسياسية .

وكانت حركات الرِّدَّة (نكسة) أصابت انتفاضة الإسلام ، فى حين كان المسلمون يقدمون على (إنطلاقة) جديدة تخرج بالإسلام وحضارته إلى آفاق عالمية ، إذ كانت حملة أسامة بن زيد هى طليعة حملات

الفتوح الإسلامية ، من أجل نشر الإسلام وحضارته الزاهره .

لقد كانت حركات الرِّدَّة أخطر الحركات المضادة التى واجهتها الحضارة الإسلامية ، فهى تهدِّد بعودة الجزيرة العربية إلى الحضارة الجاهلية الرجعية القديمة ، وما سادها من حروب قبلية دامية ، وفوضى دينية ، وتأخر حضارى .

وحروب الرِّدَّة – فى الحقيقة – حروب بين مسلمين مؤمنين ، تمسكوا بدينهم الإسلامى ، وبما أفاءه الإسلام عليهم من حضارة تقدمية ناهضة ، وبين مرتدين نبذوا تعاليم الإسلام التقدمية ، ليعودوا إلى حضارتهم الجاهلية البالية ، فضلاً عن خروجهم عن الولاء السياسى للدولة الإسلامية ، وانشقاقهم عن المجتمع الإسلامى الموحد .

إن الرواسب النفسية التى خلقتها الحضارة الجاهلية الفاسدة فى نفوس الأفراد ، لم تتوقف عن بث سمومها فى المجتمع ، ولم يكن من الممكن القضاء عليها قضاء مبرماً فى زمن قصير ، لأنها قد ترسبت فى اللاشعور .

وكان لابد من مرور سنوات عدة حتى تتحول جوانب الحضارة الإسلامية إلى خلق ثابت مستقر ، وسلوك اجتماعى عملى ، لا تؤثر فيه الانتفاضات الفجائية الانقلابية ، والنزوات المعارضة الرجعية . وقد ظهرت رواسب الماضى الجاهلى على السطح ، من عصبية قبلية وعنصرية ، وروح فردية ، مما هدد الحضارة الإسلامية .

وحيدت درجة البداوة والحضارة فى موقف كل من البدو والحضر من

حركات الرِّدَّة . فقد كان الحضر الذين تشبعوا بالحضارة الإسلامية وطبقوها عمليًّا . أكثر ابتعاداً عن هذا الارتداد . وقد تمسكت القبائل الحضرية ، مثل قريش وثقيف ، بالإسلام وحضارته . برغم مقاومتها السابقة للإسلام عند ظهوره . وكان البدو أسرع العرب إلى التمرد على الحكومة المركزية ، والخروج على أركان الحضارة الإسلامية بما تضمه من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية . وقيم روحية وخلقية . وأصبحت حركات الردّة ، حركات رجعية تدعو إلى الإقليمية والانفصالية . وتحطم الوحدة الحضارية فى العالم الإسلامى .

وكان انتصار أبى بكر والمسلمين على حركات الرِّدَّة . انتصاراً للثورة الإسلامية الحضارية ، ولم يؤد هذا الانتصار إلى عودة الوحدة الدينية والسياسية والاجتماعية إلى الجزيرة العربية فحسب ، بل كان لهذا الانتصار أثره فى تاريخ العالم ، وفى الحضارة البشرية . فقد بدأت الفتوح الإسلامية . التى أدت إلى انطلاق الحضارة الإسلامية ، إلى آفاق أوسع ، وأصبح العرب حملة لواء الإسلام وحضارته الراقية ، فى العالم أجمع .

٢ – انطلاقة نحو العالم

نصّ القرآن الكريم على عالمية الدين الإسلامى . وحضارته ، وعلى أن الله عزّ وجل قد بعث رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ؛ وفى الحديث النبوى الشريف ما يؤكد عالمية الإسلام أيضاً .

والإسلام هو الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان . وقد عمل الرسول عليه الصلاة والسلام على نشر الإسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم . فالإسلام عقيدة سامية تصلح حضارته لجميع البشر ، وقد تكفل القرآن الكريم بتبيان كل شىء ، فقد قال عز وجل : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىءٍ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ، (سورة النحل آية ٨٩) .

حارب الإسلام كل لون من ألوان العصبية ، التى تفضل جنساً على جنس ، أو أمة على أمة ، لأن هذه العصبية تدعو إلى الفرقة والانقسام ، وإلى الصراع الاجتماعى . والعصبية تفرّق البشر . وقد جمعهم أصل واحد . والإسلام يدعو الناس إلى الحياة فى مجتمع إنسانى واحد ، يكفل له الأمن والحرية والسلام ، فالإسلام كما يدعو إلى أخوة إسلامية ؛ يدعو فى الوقت نفسه إلى أخوة إنسانية عامة واسعة ، لا فرق فيها بين العناصر أو الأمم أو العقائد . وهكذا لا يعترف الإسلام بتلك الحدود الصناعية ، أو

الحدود العنصرية ، أو الفواصل الجغرافية ، بل يتجاوز الإسلام ، عقيدة وحضارة كل هذه الحدود ، ويدعو إلى حضارة إنسانية عالمية .

لاشك أن هناك فوارق فى الألوان واللغات ونظم الحياة . ولكنها فوارق خلقتها البيئة الطبيعية والظروف الجغرافية ، نتيجة انتشار البشر فى أرجاء الأرض ، ولكن هؤلاء البشر جميعاً ، برغم ما بينهم من فوارق ، ينتمون جميعاً إلى سلالة واحدة ، وقد ظل البشر فترة أمة واحدة . والإسلام يعترف بهذه الفوارق الفطرية ويرى أنها قد تؤدى إلى تبادل المنفعة والتعاون . ولكن الإسلام فى الوقت نفسه ، يرفض أن يترتب على هذه الفوارق أى شكل من أشكال التعصب ، ولذا يجعل الإسلام أكرم البشر هم أكثرهم تقوى ، بحيث يصبحون مواطنين صالحين ، فى وطنهم ، وفى الأسرة البشرية كلها .

نجح الرسول عليه الصلاة والسلام فى توحيد العرب فجعلهم أمة واحدة ، لأول مرة فى تاريخهم ، ثم ساوى بين العرب وغيرهم من الأجناس التى اعتنقت الإسلام . ونادى الرسول بوحدة الحضارة ، والمشاعر الإنسانية ، ودعا إلى محو جميع الحواجز والفروق الطائفية والعنصرية .

وكانت الدولة العربية الإنسانية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام تضمّ أفراداً من أجناس مختلفة ، من الروم والفرس والأحباش ، وهم — وإن كانوا قليلى العدد بالنسبة للأغلبية العربية — كانوا يمثلون (وحدة

حضارية) . فضلاً عن تمثيلهم لدعوة الإسلام العالمية .

وبدأت انطلاقات الحضارة الإسلامية ، بالفتوح العربية ، فى عهد أبى بكر وعمر بن الخطاب ، أولاً ، ثم فى العصر الأموى . وكانت هذه الفتوح بدافع نشر الإسلام وحضارته . لتحرير الشعوب من النظم الحضارية القديمة البالية ، ولإنهاء الصراع الحضارى بين الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية .

وكانت الفتوح العربية من موضوعات التاريخ الإسلامى الرئيسة التى نفث المستشرقون المجحفون فى دراساتهم لها سمومهم ، فهذه الفتوح قد امتدت واتسعت ، فى قارتى آسيا وأفريقية ، حيث فتح العرب جميع أراضى الدولة الفارسية ، الممتدة من غرب العراق إلى وسط آسيا شرقاً ، وفتحوا الشام ومصر ، ووصلوا بفتوحهم فى شمالى إفريقية إلى المحيط الأطلسى ، ثم إلى القارة الأوربية ، حيث فتح العرب شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس) ، وجنوبى فرنسا ، وجنوبى إيطاليا ، وجميع جزر البحر المتوسط ، وكانت هذه القارات الثلاث تمثل العالم الوسيط ، حيث لم تكتشف بعد القارتان الأمريكيتان وقارة أستراليا . واعتبر المتعصبون من الأوربيين هذه الفتوح العزبية غزواً إسلاميًّا يهدد العالم المسيحى ، كما اعتبروها أيضاً غزواً حضاريًّا ، إذ تغزو الحضارة الإسلامية الحضارات الأوربية ، وعبّر بعض المستشرقين عن هذا التعصب ، وتلك الأحقاد .

وتنوعت مزاعم المستشرقين . فمنهم من يزعم أن العرب أرادوا إنشاء إمبراطورية إسلامية . ومنهم من يصف الفتوح بأنها « غزوة بدوية مؤقتة » . وكثير منهم يزعم أن العوامل الاقتصادية هي الأسباب المباشرة للفتوح العربية . فيذكر المستشرق (توماس أرنولد) - مثلاً - في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) . أن هؤلاء الفاتحين العرب لم يكونوا مدفوعين بالحماسة الدينية . بل بالطمع في النفع الدنيوى والحصول على غنائم كثيرة . كما يعتبر (أرنولد) توسع الجنس العربى هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها الجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً .

ومن اليسير الرد على مزاعم هؤلاء المستشرقين . فلم تكن الحكومة الإسلامية تبعث بهذه الجيوش العربية الضخمة لتواجه جيوش أعظم دولتين في العالم . الفارسية والرومانية . من أجل تحقيق مكاسب سريعة . أو غنائم مؤقتة . بل كانت الفتوح سياسة واضحة . محددة مقررة . من أجل تحقيق عالمية الدين الإسلامى . ونشر حضارته التقدمية الزاهرة . وهي سياسة وضع أسسها الرسول الكريم . واستمر في تنفيذها خلفاؤه من بعد .

ومما يؤكد الاتجاهات الحضارية في الفتوح العربية . ومما ينفى مزاعم المستشرقين . أن البدو لم يكونوا يمثلون غالبية الجند العرب . بل كان عماد الجيوش العربية على القبائل الحضرية . مثل قريش وثقيف .

واشتركت أيضاً فى الـفتوح القبائل اليمنية وكانت على درجة كبيرة من الرق الحضارى .

لقد كان الفتح الإسلامى للأراضى الفارسية والرومانية ، تحريراً لشعوبها مما كانوا يعانون منه من مظالم واستبداد وإرهاب ، ونهضة بأحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكانت سيادة الحضارة الإسلامية فى هذه الأقاليم المفتوحة دافعاً إلى النهضة والتقدم ، وكان اهتمام الحكومات الإسلامية القائمة فى هذه الأقاليم بالإصلاحات العامة ، وبتحقيق عدالة الضرائب ، من عوامل نهضة اقتصادية شهدتها هذه الأقاليم ، طوال قرون كثيرة ، أما مسألة الغنائم فهى مسألة مؤقتة تنتهى بانتهاء الحروب .

والثابت تاريخيًا أن العرب الفاتحين بعد إستقرارهم فى الأقاليم المفتوحة انصرفوا إلى السياسة والإدارة ، وتركوا النشاط الاقتصادى للأهالى ، ولم يتدخل العرب فى هذا النشاط ، فاستمرت الصناعة والتجارة ، والحرف والمهن ، فى يد العناصر غير العربية ، بل أدى اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وتحطيم الحواجز السياسية والحضارية التى كانت تفصل بين الأراضى الفارسية فى العراق وفارس ، والأراضى الرومانية فى الشام ومصر ، إلى نشاط اقتصادى واسع النطاق ، وإلى وحدة نظم حضارية .

وجد العرب فى الشام قوميات مختلفة متصارعة ، ذات حضارات

متباينة ، فينيقية ، وكلدانية ، وعبرية ، ويونانية ، ورومانية . ولم يهتم الرومان بتحقيق التوازن بين هذه القوميات والحضارات . مما أدى إلى صدام قومي وصراع اجتماعي . وأعلن الإسلام أنه يساوي بين القوميات والأجناس ، وكان الطريق ممهداً أمام الإسلام ليصبح الرباط الديني والحضاري الذي يربط بين هذه القوميات والمجتمعات المتنافرة – كما أصبحت الحضارة الإسلامية هي أساس الوحدة الاجتماعية .

وفي مصر ، لم يلتق العرب الفاتحون في ميادين القتال إلا والمستعمرون الرومان ، فقد رحب أقباط مصر بالفتح العربي . باعتراف المستشرقين . إذ عانى الأقباط من الاضطهاد المذهبي نتيجة اختلاف مذهبهم عن مذهب الرومان . كما كان الأقباط المصريون يعانون من الضرائب الفادحة الظالمة . وقدّم المصريون للجيوش العربية حاجاتها من الإمدادات والتموين ، ومهدوا لهم الطرق ، حتى يتحرروا من الاستعمار الروماني .

وفي العراق وفارس ، لقي الفاتحون العرب مقاومة شديدة من جيوش كسرى ، فقد كان هذا الكسرى بمثابة إله يدافع عن سطوته واستبداده ، ويخشى الإسلام على نفوذه الضخم ، ويقف من ورائه رجال الدين المجوسي . الذين أصبحوا طبقة أرستقراطية رأسمالية ، سيطرت على السياسة والاقتصاد ، ويؤيدهم جميعاً طبقة النبلاء الفرس الذين أرادوا الاحتفاظ بنفوذهم وثرائهم الواسع .

أما جماهير الشعب الفارسي ، فقد كانت تعاني من سطوة كسرى

وأعوانه . وقد ملَّت الحروب المستمرة مع الدولة الرومانية ، حيث اجتاح الرومان الأراضى الفارسية أحياناً وأنزلوا بها الخراب والتدمير . كما كانت العقائد المجوسية قد أصابها الوهن والانحلال ، وأصبحت مجموعة من الخرافات ، وقد كانت الأفكار المجوسية المزدكية تدعو إلى الإباحية والفوضى الاجتماعية ، إذ تجعل للمال والنساء مشاعاً بين جميع الناس على قدم المساواة . وكانت غالبية الفرس زاهدة فى الحضارة الفارسية ، وفى المظاهر القومية ، إذ قد ضعفت معانى الاستقلال فى نفوسهم . كما وجد الفرس فى الفتح العربى خلاصاً من الخدمة العسكرية ، وأملاً فى تمتعهم بالحرية الدينية ، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التى تمتع بها العرب الفاتحون . وأدّت هذه العوامل كلها إلى فتح الأبواب فى الأراضى الفارسية للحضارة الإسلامية .

وبرغم المزاعم الباطلة التى رأيناها حول دوافع الفتوح العربية التى ساقها المستشرقون فإنهم اعترفوا اعترافات صريحة بانتشار الإسلام انتشارا سريعاً ، نتيجة الإقبال من غالبية أهالى الأقطار المفتوحة على اعتناق الإسلام ، والتحضّر بحضارته الزاهرة .

يعلّل المستشرق (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) هذا الانتشار للإسلام وحضارته ، بعاملين : أولها معرفة كثير من الأهالى لعقيدة التوحيد ، والعامل الآخر هو – يسر الإسلام وسهولته ، وهذا اليسر هو سر قوته . فهو يخلو مما نراه فى الأديان الأخرى من المتناقضات والغوامض .

أما المستشرق (ستانلى لينبول) فهو فى كتابه (دراسات فى مسجد) يتساءل عن سبب انتشار الإسلام وحضارته . وهل هو القانون الأخلاقى الذى تحويه العقيدة؟ ويجيب (لينبول) على تساؤله . فيقول : إن ما حواه الإسلام من مبادئ وتعاليم سامية ، كافية لتعلق قلوب الملايين بالإسلام وحضارته .

ويعلل المستشرق (دوزى) فى كتابه (نظرات فى تاريخ الإسلام) إقبال الفرس على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه فى دياناتهم السابقة . أما المستشرق (توماس أرنولد) فيرجع فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) سبب انتشار الإسلام إلى عاملين : أولها – نجاح العرب الواسع النطاق الذى زعزع العقائد الأخرى . فرأى الأهالى أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله . وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الإلهى . أما العامل الآخر . فهو ما كان يحتويه الإسلام من حضارة ناهضة . ومثل أعلى ترمى إلى أخوة المؤمنين كافة فى الإسلام .

ويشير المستشرق (فون كريمر) فى كتابه (الحضارة الإسلامية) إلى أن الإسلام أصبح هو الرابطة بين العناصر المختلفة المتنافرة التى كانت تسكن الأقطار المفتوحة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية إلى جانب كونه عقيدة دينية . وقد قام موسم الحج بدور كبير فى مزج هذه العناصر . فقد رحل المسلمون على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم إلى مكة ، فساعد ذلك على امتزاج الثقافات والحضارات .

٣ — موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات العالمية

. رحبت معظم العناصر بالفتح العربى ، إذ وجدوا فى هذا الفتح خلاصاً لهم وتحريراً من مظالم ومفاسد الحكمين : الفارسى ، والرومانى . ولاشك أن هذا الترحيب كان عاملاً مساعداً على امتزاج العرب المسلمين الفاتحين بهذه العناصر المختلفة ، مما أدى إلى اتساع نطاق انتشار الحضارة الإسلامية ، فأصبحت أساس المجتمع الجديد فى الإمبراطورية الإسلامية .

سادت فى العالم الإسلامى حضارة تخالف الحضارات السابقة فى الأراضى الفارسية والرومانية . حضارة تختلف هى والحضارة العربية التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية زمن الفتوح ، فقد سادت حضارة إسلامية ، تستمد روحها ومقوماتها من الإسلام ، وتقتبس من الحضارات العالمية أحسن ما فيها مما يتلاءم هو والإسلام .

وقد استفاد العالم من الحضارة الإسلامية الجديدة أكثر مما استفاده من الحضارتين : الإغريقية ، والرومانية . فالحضارة الإغريقية توجه معظم اهتماماتها إلى الفكر والفلسفة ، ولا تهتم كثيراً بحاجات المجتمع ،

وحياة الفرد اليومية . فى حين تهتم حضارة الإسلام بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر . وتوفر السعادة فى الدنيا والآخرة . كما أن الحضارة الرومانية تهتم كثيراً بالمبانى الضخمة الفخمة . وخاصة الملاعب الرياضية ، لإثبات عظمة الرومان ليحتفظوا بسيادتهم السياسية . كما تعصب الرومان لعنصرهم واحتقروا باقى الأجناس . واحتقروا من ثم حضاراتهم .

وبذلك اختلاف الفتح العربى تماماً والفتوح الرومانية والمغولية التى لم تهتم بإنشاء حضارات راقية ثابتة دائمة . بل إن المغول خرّبوا ودمّروا كل الحضارات القائمة . فى حين كان الفتح العربى يحمل رسالة حضارية تدعو إلى الرخاء والسلام فى الأسرة البشرية .

وبعد الفتوح الإسلامية بدأ امتزاج العرب الفاتحين بالعناصر الأخرى فى الأقطار المفتوحة ، وفى ذلك يقول المستشرق المنصف (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) : منح الإسلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن الأقطار المفتوحة ما تحتاج إليه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحميّة ما استعدوا بها للتضحية بأنفسهم فى سبيله . وقد منحت الحضارة الإسلامية ، ومثلها العليا ، هؤلاء الأهالى مشاعر مشتركة وآمالاً واحدة وإيماناً متيناً يندفع به كل واحد من أبنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل النصر ، وكانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الفريدة التى قامت باسم الدين ، والتى اشتقت من دينها جميع

نظمها الحضارية . السياسية والاجتماعية .

وأدى الإسلام إلى تقارب عناصر السكان المختلفة ، ثم اندماجهم فى مجتمع واحد . وفى حضارة موحدة . بدلاً من تلك الحضارات القديمة ، القبلية أو الطبقية أو العنصرية .

وجدت المجتمعات الأجنبية فى الحضارة الإسلامية أساساً لحل مسائل الحياة : فالإسلام لا يقتصر على سن القواعد فى النظام المدنى ، بل يدعمها بالحث على مكارم الأخلاق وإصلاح الأفكار وتطهير النفوس ، ليكون ذلك منها رقيباً على مواصلة العمل بتلك القواعد . كما يتميز الإسلام بالمرونة والواقعية والتطور ، وبالملاءمة مع طباع البشر ، فهو دين الفطرة والتقدم والخلود .

وأبدت هذه المجتمعات إعجاباً بما وجدته فى الحضارة الإسلامية من اتساع الآفاق فى سائر مجالات الحياة ، فالإسلام منبع هذه الحضارة ، يوفق بين الحياة الروحية والحياة المادية ، ويجعل العقل حكماً فى كل أمر ، ويضع القواعد العامة والأصول الجوهرية ، ويترك التفاصيل والجزئيات للمؤمنين يفسرونها . فى كل زمان ومكان ، بوحى من إيمانهم ، وبروح من بيئتهم وعصرهم . والإسلام يحقق التوازن التام بين مصلحة الفرد ومصالح المجتمع ، فهو يعطى المسلم الحرية الفردية فى دائرة المصلحة العامة للمجتمع .

ويمنع الإسلام كل الحواجز والعقبات ، القانونية والتقليدية ، التى

تمنع الإنسان من بذل جهده ، فى الكسب والإنتاج ، والنشاطين : الاجتماعى ، والاقتصادى ، ويلغى الإسلام الامتيازات والفوارق التى تحقق لبعض الطبقات أو السلالات أو البيوتات منزلة خاصة تخالف القانون السماوى وتتعارض هى ومصالح الأغلبية . والإسلام يعترف بالتباين الفطرى والفوارق الطبيعية ، ولكن يمنع أن يكونا من عوامل الصراع الاجتماعى ، بل يجعلهما فى خدمة المجتمع الموحّد .

وقد أصبح نظام الزكاة الإسلامى ، خير مميز للمجتمع الجديد ، فهو نظام إلهى فريد لم يعرفه العالم من قبل . فهو تأمين اجتماعى يحقق للمسلم ضروريات الحياة ، ويعطيه قوة دفع تمكنه من المساهمة فى تقدم المجتمع ونهضته كما تحقق الزكاة التكافل والتضامن الاجتماعيين ، وتصور النزعة الإنسانية العميقة الواسعة فى الإسلام .

أصبحت الدولة الإسلامية بعد الفتوح العربية ، إمبراطورية واسعة ، تضم أراضى واسعة ، تمتد من الصين شرقاً إلى غربى تونس ومن جبال طوروس شمالاً إلى النوبة جنوباً . وتسكن هذه الإمبراطورية ، عناصر جنسية كثيرة ، وبها حضارات مختلفة ، ولغات كثيرة ، واختلفت هذه الشعوب فى تواريخها القديمة ، وفى حياتها الاجتماعية والسياسية ، وفى نشاطها الاقتصادى ، فى مصالحها واتجاهاتها ، وفى آمالها وآلامها .

وهكذا كانت صورة الدولة الإسلامية بعد انتهاء الفتوح العربية

مباشرة . صورة تتعدد فيها الألوان والأشكال . وتتصف بالتنافر والتنوع والتعدد . فى جميع جوانب الحياة . وكان لابد من مرحلة انتقال . تتأخذ كل هذه الأقاليم والشعوب . لونا واحداً متميزاً فى الحضارة . يحقق التقارب . ثم الامتزاج . ثم الاندماج . تحقيقاً للتجانس والتناسق . ولا يكفى أن تكون هذه الشعوب المتنافرة فى حضاراتها . فى ولاء دولة واحدة ولها رئيس واحد هو الخليفة . إذ إن استمرار هذه الصورة الشاذة يؤدى حتماً إلى صراعات قومية واجتماعية وحضارية .

وإذا كان لابد من وجود محور تلتف حوله هذه الشعوب التى تضمها الدولة الإسلامية . ورباط ترتبط به الجماهير والجماعات المختلفة . فماذا يكون هذا المحور أو ذاك الرباط ؟ لقد قام العرب المسلمون بالفتوح . والدولة ساعة الفتح دولة إسلامية . ودولة عربية فى وقت واحد .. دولة عقيدتها الإسلام . ولغتها العربية . فهل يكون الرباط الذى يربط الجزيرة العربية بالأقاليم المفتوحة هو الإسلام وما ينبع منه من حضارة . أو اللغة العربية وما ينبع منها من فكر وثقافة ؟ .

خاض علماء القومية فى أسس القومية . وذهب معظمهم إلى أن وحدة اللغة . ووحدة التاريخ المشترك . هما أبرز أسس القومية . ولكن هناك فروقاً واضحة بين النظريات . وبين الواقع التاريخى . ولا يمكن تطبيق نظريات علماء القومية على تلك الفترة التاريخية التى ندرسها الآن . وهى الفترة التى تلت الفتوح العربية الإسلامية مباشرة . وهى فترة

انتقال وتحول تتصف بالأهمية المصيرية . فقد شهدت تشكل مجتمع جديد مترامى الأطراف . كما لا يمكن تطبيق نظريات علماء القومية . وهى نظريات حديثة . على تلك الفترة من تاريخ العصور الوسطى . فالعصور الحديثة هى عصور القوميات . فى حين أن العصور الوسطى هى عصور الدين ، كما ذهب إلى ذلك كثير من المفكرين .

ولا يمكن أى مفكر أن يفصل بين الإسلام واللغة العربية فصلاً تاماً كاملاً . فهناك روابط وثيقة تربط بينهما . ولا يمكن أبداً إغفالها . فقد اختار المولى عز وجل الجزيرة العربية لتكون المهد الأول لخاتم أديانه السماوية . واختار الخالق العظيم أيضاً خاتم أنبيائه ورسله من بين العرب . وشاء سبحانه وتعالى أن يكون آخر كتبه السماوية باللغة العربية . وإن كان الإسلام ديناً عالميًا ، فإنه يبدأ بالعرب ، ويصبح العرب بذلك حملة لواء الإسلام إلى سائر الشعوب خارج الجزيرة العربية .

وهكذا أصبح من المحتم أن يمضى الإسلام واللغة العربية على طريق واحد . فالفاتحون عرب ، والعاصمة فى المدينة المنورة بالجزيرة العربية . والخليفة رئيس الدولة عربى . ولذا أصبح الإسلام واللغة العربية رباطين حتميين وطبيعيين ، لربط مختلف العناصر والحضارات والثقافات والقوميات . تمهيداً لمرحلتى الامتزاج والاندماج .

وإن تلازم الإسلام واللغة العربية ، فقد اختلفا فى سرعة الانتشار ، فسبقت اللغة العربية الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ،

وسبق الإســلام اللغة العربيــة فى العصر العباسى ، ولكن هذا السبق لم يؤد إلى مســافة طويلة تفصــل بينهما ، كما لم يؤد قط إلى أى تبــاعد بينهمــا .

وكذلك كان من اليسير على الأجنبى الذى يعيش فى الأراضى المفتوحة أن يتعلم اللغة العربية ، وتعلمها لا ينسخ لغته القومية المحلية ، فمن الممكن للفرد أن يتعلم عدة لغات فى وقت واحد . وتعلّم لغة جديدة لا يغير من حياة الإنسان الاجتماعية أو لونه الحضارى أو من أفكاره واتجاهاته . أما اعتناق دين جديد فمعناه ترك الدين القديم ، فلا تعدد فى الأديان ، والدين ليس عبادات فحسب ، بل هو معاملات ، واتجاهات حضارية وفكرية ، ونظم سياسية واجتماعية . والإسلام حضارة عامة شاملة ، ولذا على المسلم الجديد اتباع روح الإسلام وأحكامه وتعاليمه فى حياته اليومية والاجتماعية . ومن ثم أصبح اعتناق الإسلام انتقالا بالفرد إلى حضارة جديدة ، ذات آفاق أرحب .

وفى أول الأمر ، كان تعلّم اللغة العربية يسبق انتشار الإسلام ، وكل من يعتنق الإسلام عليه أن يتعلم العربية ، لأداء الصلاة ، ولقراءة القرآن الكريم للوقوف على أركان الإسلام وأحكامه . فى حين أنه ليس من الضرورى لمن أراد تعلّم العربية اعتناق الإسلام . كما أقبلت بعض الشعوب على تعلم العربية للاحتفاظ بوظائفها الحكومية ، أو للتفاهم مع السلطات العربية الحاكمة ، أو لتيسير نشاطهم الاقتصادى .

وخلاصة القول : كان الجيل المعاصر للفتوح العربيـة أكثر إقبالا على اللغة العربيـة فى حين كان الجيل الثانى أكثر إقبالاً على الإسلام . وما حدث فعلاً يخضع فى الحقيقة لسنة الحياة والتطور . وكانت هذه الصورة التاريخية من مصلحة الإسلام . فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف . ونحن دائماً فى حاجة إلى رسوخ الإيمان فى الأعماق . فى النفس والعقل . وفى حاجة إلى تطبيقات عملية إيجابية لروح الإسلام وحضارته .

لا إكراه فى الدين . وقد عرف العرب هذه الحقيقة وطبقوها عمليًا فى كل الأراضى المفتوحة . ويعترف المستشرقون جميعاً بأن العرب لم يكرهوا أجنبياً على اعتناق الإسلام . فخضع الإسلام وحضارته للاختيار الفردى والجماعى فى حرية تامة . والإسلام له سموه ومزاياه . ولذا طرح الفاتحون العرب تعاليم الإسلام السامية وحضارته الناهضة تحت أنظار الشعوب . ثم تركوا لهم حرية الاعتناق والتحضّر .

ووجّه الفاتحون العرب – خليفة وحكومة – اهتمامهم إلى التعريب . بحيث يضفون اللون العربى على الأقاليم المفتوحة . المختلفة فى حضاراتها ولغاتها وقومياتها . واللغة العربية هى أساس التعريب . واللغة العربية ليست حروفاً أبجدية فحسب . بل هى ثقافة ، ووحدة اللغة تؤدى إلى وحدة الثقافة . وهذه تؤدى إلى وحدة العقلية والنفسية ، مما يوحد الشخصية العربية الواحدة . واللغة العربية أيضاً يمهد انتشارها إلى انتشار

الإسلام وحضارته . فهى تتيح لمن يتعلمها قراءة القرآن الكريم وتفهم الأحاديث النبوية الشريفة . فيقف على سمو الإسلام . ويتحضر بحضارته .

كان من الضرورى ترك حاميات عسكرية عربية فى الأراضى المفتوحة حماية لشعوبها من محاولات الفرس والرومان لاستعادة نفوذهم . فقد حاول الرومان – مثلاً – استرداد مدينة الإسكندرية مرتين ، إلى جانب مواجهة مؤامرات وانتفاضات مراكز القوى القديمة من أنصار السلطات الفارسية والرومانية .

واهتم عمر بن الخطاب . الخليفة الراشد العبقرى ، برسم أبعاد حياة هؤلاء الجنود العرب فى الأراضى الجديدة . وخشى عمر أن تذوب هذه الأقلية العربية التى فى هذه الأقاليم . وسط الأغلبية الأجنبية ، بعد جيل أو جيلين . إذ حدث امتزاج حضارى واجتماعى فجأة . ورأى عمر أن تحافظ هذه الحاميات على عروبتها ، وعلى لونها الحضارى ، وعلى خصائصها الاجتماعية ، بحيث يمكن هذه الحاميات أن تحمل لواء الدعوة إلى الإسلام ، كما تصبح مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية ، وللعروبة . ولذا نهى عمر عن إقامة هؤلاء الجند العرب فى المدن . وأمرهم بأن يقيموا فى معسكرات ذات طابع عسكرى ، بعيداً عن المجتمعات الأجنبية .

أراد عمر أن تكون هذه الحاميات العربية نقطة الانطلاق إلى

التعريب . وإلى نشر الحضارة الإسلامية . وإذا فقد العرب عروبتهم أو لونهم الحضارى . عجزوا عن تعريب هذه الشعوب . ونقل الحضارة الإسلامية إليها . وفاقد الشىء لا يعطيه . وكان الانطلاق التام والسريع فى التزاوج بين العرب والأجانب يخرج أجيالاً تتضاءل دماؤها العربية بمرور الزمن .

والعرب يعتزون بلغتهم العربية . فهى لغة قديمة عريقة . وهى فوق كل شىء لغة القرآن الكريم ، وأدرك عمر بحكمته أن الامتزاج الاجتماعى يؤدى إلى تأثر الأقلية العربية لغويًا بالأغلبية ، مما يؤثر فى اللهجات والنحو ، فينتشر اللحن والخطأ ، وأراد عمر المحافظة على سلامة اللغة العربية من المؤثرات الأجنبية ، فاللغة أساس القومية ؛ وقد أراد عمر أن يمنح تلك الشعوب الأجنبية المتعددة فى القوميات والحضارات ، قومية واحدة ؛ وحضارة موحدة .

واتضحت حكمة عمر بعد ذلك ، فقد حاد الخليفة عثمان بن عفان عن سياسة عمر بن الخطاب . وحدث امتزاج اجتماعى وحضارى واسع النطاق ، فوقع المحظور . وتأثرت اللغة العربية باللغات الأجنبية . وكثر اللحن ، ولذا أمر الخليفة على بن أبى طالب أبا الأسود الدؤلى بوضع قواعد النحو والصرف ، حفاظاً على جوهر اللغة العربية .

والحضارة الإسلامية لها طابعها المتميز ، وهى تنبع من الإسلام ، فى حين تنتشر فى الأقطار المفتوحة حضارات قديمة ، فارسية ورومانية

وإغريقيـة ومصرية . تختلف فى منـابعها وألوانهـا واتجاهاتها والحضارة الإسلامية . وخشى عمر بن الخطاب أن تدخل بعض الشوائب الأجنبية على الحضارة الإسلامية . فالرعايا الأجانب لا يزالون يحتفظون بعقائدهم ومذاهبهم القديمة . ومنهم من لا يعتنق عقائد سماوية . مثل المجوس الفرس . وما نعرفه عن تاريخ العصر العباسى يثبت حكمة عمر . فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ولذا سادت الحضارة الفارسية فى العصر العباسى الأول الذى استغرق مائة سنة (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) . واستأثر الفرس بالنفوذ السياسى والإدارى . ولذا حاولوا فرض حضارتهم الفارسية القديمة المتأثرة بتعاليم المجوسية ، مما أدى إلى دخول شوائب مجوسية فى الحضارة الإسلامية ، مما نسميه فى التاريخ بالزندقة . فشهد هذا العصر نزعات فوضوية ، فى الأخلاق والتقاليد الاجتماعية ، فضلاً عن الانحلال والفساد ، مما جعل الخلفاء العباسيين يقفون منها موقفاً حازماً ، دفاعاً عن الإسلام وحضارته .

وحياة المدن حافلة بالترف والرفاهية . وبالفساد الاجتماعى أيضاً . وقد انتصر الجندى العربى بفضل حماسته الدينية ، وحضارته البدوية ، وخصائصه الجسمانية والنفسية والخلقية ، وما هو عليه من شجاعة وإقدام وصبر وتقشف وزهد . وحضارة المدن قد تدعو الجندى العربى إلى الدعة والكسل ، وإلى الإقبال على متع الحياة ، مما يفقد الجندى العربى تلك الخصائص . كما أراد عمر أن يظل الجيش العربى جيشاً نظامياً ، مستمراً

فى تدريباته العسكرية . فى تلك المعسكرات . مستعدا فى كل وقت لمواجهة أعداء الإسلام .

وتحقيقاً لسياسة عمر فى المحافظة على العروبة . وعلى الطابع الحضارى الإسلامى . أقام العرب الفاتحون فى معسكرات خاصة . بعيدة عن المدن القائمة . محتفظين بطابعهم العسكرى . ومنعوا الأجانب من الدخول إلى المعسكرات . وعلى هذه الصورة . قامت معسكرات البصرة والكوفة بالعراق . والفسطاط فى مصر . وإن كانت هذه المعسكرات الثلاثة قد تحولت فيما بعد إلى مدن عامرة . بمفاهيم المدن . إلا أن العرب حينما أقاموها لم يقصدوا أن تكون مدناً . بل معسكرات لإقامة الحاميات العربية .

وهكذا كانت دوافع عمر حكيمة . ولكن سنة الحياة والتطور كانت أقوى من سياسة عمر : وإن كان لهذه السياسة أسبابها ودوافعها . ولكن من العسير تنفيذها عمليًا بالكامل . فالإنسان مدنى واجتماعى بطبعه . والحضارة عالمية فى اتجاهاتها ، ومن العسير وضع حدود ثابتة تمنع الامتزاج الحضارى ، ولذا كان من المستحيل أن يستمر وجود هذا المجتمع العربى ، فى عزلة تامة وسط المجتمعات الكبيرة الأجنبية ، وطبيعة الحياة تؤدى حتماً إلى امتزاج المجتمعات والحضارات .

واضطرت سنّة الحياة والتطور الخليفة عمر إلى التغاضى عن بعض جوانب سياسته العربية ، وما لبثت هذه السياسة أن انهارت فى عهد

سلفه الخليفة عثمان بن عفان . فقد شبّ حريق فى المعسكرات الثلاثة . فى البصرة والكوفة والفسطاط . فى أوقات متقاربة ، وطلب الجند من الخليفة عمر بناء مساكنهم بالأحجار ، ورفض عمر ، فبناء المساكن الحجرية يؤدى إلى إقامة المنازل الثابتة ويحتاج إلى تخطيط وتنظيم عمليات البناء ، فيتحول المعسكر البسيط المظهر ، المكون من خيام متقاربة ، إلى مدينة . ولذا أمر عمر بالبناء بالقصب (أى البوص) ، وأتت النيران مرّة أخرى على ذلك القصب ، واضطر عمر إلى الإذن بالبناء بالأحجار .

وكان هذا الإذن هو بداية الامتزاج الحضارى والاجتماعى ، وتحول المعسكرات إلى مدن . فقد احتاج العرب إلى مهندسين لتنظيم البناء ، وتخطيط الشوارع والمرافق العامة . ثم احتاجوا إلى عمّال بناء من الأجانب . فبدأت العناصر الأجنبية تدخل ، لأول مرّة ، إلى هذه المعسكرات العربية . وما لبث الخليفة عثمان بعد توليته أن حاد عن سياسة سلفه عمر ، فتدفق الأجانب على هذه المعسكرات يقيمون الأسواق ، ويبنون الدور ، وأصبحت المعسكرات مدناً كبيرة عامرة . وامتزجت العناصر الأجنبية المختلفة بالحاميات العربية ، وحدث تزاوج بين الفريقين ، وبين الحضارات .

وهكذا كانت الخطوة الأولى نحو الامتزاج الحضارى ، وبعد قرون سيتحول الامتزاج إلى الإندماج . وشمل الامتزاج الدماء واللغات أيضاً .

بعد إستقرار العرب الفاتحين فى الأقاليم المفتوحة ، حدث تزاوج

بينهم وبين المجتمعات الأجنبية . فكان كثير من الجند قد تركوا زوجاتهم في الجزيرة العربية . فأقبلوا على الزواج من نساء الأقاليم الجديدة . وخاصة البدو العرب الذين جذبتهم حضارة النساء الأجنبيات أو جمالهن كما تزوج بعض الجند من الجوارى اللاتى حازوها كغنائم حرب . وظهر جيل ثانٍ يجمع بين الدماء العربية والدماء الأجنبية . وأدى هذا التزاوج أيضاً إلى امتزاج حضارى . فقد حملت الزوجات والجواري الأجنبيات إلى البيوت العربية ألواناً حضارية جديدة . وتأثر الأزواج العرب بحضارات زوجاتهم الفارسيات والرومانيات . ولم يرض الخليفة عمر كثيراً عن هذا التزاوج . حفاظاً على الدماء العربية ؛ كما نظر كثير من العرب إلى هذا الجيل الثانى المختلط نظرة أقل احتراماً من نظرتهم إلى العرب الخلّص .

وحدث أيضاً امتزاج قوى بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى . وكانت الحضارات فى عصر الفتوح متقاربة ، فقد تأثرت الحضارة الرومانية بالحضارة الإغريقية . بعد تغلبها عليها . كما حدث امتزاج بين الحضارتين الرومانية والفارسية نتيجة الحروب المستمرة بين الدولتين ، واجتياح كل دولة منهما أراضى الدولة الأخرى .

وكان لانتشار الأمية بين العرب الفاتحين أثره فى اعتمادهم على الموظفين الأجانب فى دواوين الحكومة . وفى اقتباسهم كثيراً من النظم الإدارية . والحكومية ، الفارسية والرومانية ، وامتد الاقتباس إلى جميع

شئون الحياة ، واقتبسوا الحرف والمهن ، وأدوات الحضارة ، وألوان الطعام ، وأشكال الأزياء .

ولا بأس من هذه الاقتباسات ، فالحضارة قبل كل شيء عالمية ، والبشر أسرة إنسانية واحدة ، والاقتباس يؤدى إلى التقارب الحضارى ، ويزيل الفوارق . وكان العرب يقتبسون ما يتفق مع روح الإسلام وتعاليمه ، ومع ما يتلاءم هو وأخلاقهم وعاداتهم وعقليتهم ، ثم يضفون على ما اقتبسوه روحهم الإسلامية .

وكان لقيام إمارة الحيرة العربية على أطراف العراق ، وإمارة الغساسنة على أطراف الشام ، قبل الإسلام أثره فى التقريب بين الحضارة العربية والحضارتين الفارسية والرومانية . كما اطلعت قريش على الحضارات الأجنبية خلال رحلاتها التجارية إلى أرجاء العالم .

وتحدث المستشرق (ديموبين) فى كتابه (النظم الإسلامية) عن الامتزاج الاجتماعى والحضارى ، فقال : أدت إقامة العرب فى المدن الإسلامية الجديدة ، إلى امتزاجهم بأهالى البلاد ، وقد تعاونوا جميعاً فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولم تكن عناصر الأقطار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلاً فى سبيل تكون مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية ، واعتنق الإسلام ، وتحضر بالحضارة الإسلامية .

وكان لانتشار الإسلام بين العناصر الأجنبية فى البلاد المفتوحة ، أثره

فى امتزاج العناصر الجنسية والقومية . وامتزاج الحضارات . فالإسلام حضارة شاملة راقية . فأصبح للمؤمنين به حضارة واحدة متميزة مستمدة من روح الإسلام وشرائعه . مما أدى إلى وحدة السلوك والتفكير والأخلاق والنفسية . ولاءم المسلمون الجدد بين حضارتهم الأصلية القديمة وبين الحضارة الإسلامية الجديدة . فاحتفظوا من حضارتهم القومية بما يتفق مع تعاليم الإسلام .

وقامت اللغة العربية أيضاً بدور كبير فى امتزاج الحضارات والقوميات ؛ فقد أدى انتشارها فى عصر الخلفاء الراشدين ومطلع العصر الأموى ، ثم حين عرّب الأمويون دواوين الحكومة ، إلى وحدة ثقافية وعقلية ونفسية . وسادت القومية العربية . وبدأ إندماج العناصر الأجنبية فى الحياة العربية الإسلامية الجديدة . وكان الفرس والرومان يعرفون اللغة العربية عن طريق إمارتى الحيرة والغساسنة العربيتين . وأدت رغبة المسلمين الجدد فى قراءة القرآن الكريم . وتولى المناصب الحكومية . إلى سعة انتشار اللغة العزبية . كما كان التسامح العربى له أثره الكبير فى نشر الإسلام واللغة العربية على حدّ سواء .

ولم تنتشر اللغة العزبية ، مثلها فى ذلك مثل الإسلام . بالقوة أو بحد السيف ، فيذكر المستشرق (بارتولد) فى كتابه (الحضارة الإسلامية) أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ، كما أدّى تسامح العرب إلى انتشار لغتهم . إذ إن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح

كالجرمان والمغول والفرس .

وفى الحقيقة . اتبع العرب فى نشر دينهم ولغتهم وحضارتهم سياسة التمهل والتعقل . وراعوا سنن الطبيعة والنشوء . ولم يحاربوا أديان الأقوام الأخرى أو لغاتهم أو حضاراتهم . وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى انتشار الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية .

٤ – الحضارة الإسلامية فى مواجهة الأعداء

الشعوبية :

بدأت جذور تيارات الشعوبية فى أواخر العصر الأموى . لتظهر واضحة فى العصر العباسى . والحقيقة التاريخية هى أن الدولة الأموية كانت دولة الحضارة العربية ، أكثر منها دولة الحضارة الإسلامية . ونحن لا ننفى اهتمام الخلفاء الأمويين بانتشار الإسلام ، وحمايته من أعدائه ، فضلاً عن اهتمامهم بالفتوح الإسلامية الواسعة النطاق ، والتى ترتب عليها انتشار الإسلام فى أقاليم واسعة شاسعة . وهذه الأمور لا ينكرها أبداً كل مؤرخ ، ولكن – برغم ذلك – كانت السياسة العربية فى الدولة الأموية أكثر وضوحاً ورسوخاً .

اعتز الخلفاء الأمويون بعروبتهم ، وبانتسابهم إلى قريش أعظم القبائل العربية ، واهتم الخلفاء بتعريب الدولة ، فبدءوا بتعريب الدواوين

الحكومية ، فحولوها من اللغات القومية الأجنبية إلى اللغة العربية . ثم سكّوا عملة عربية . واعتمد الأمويون تماماً على العنصر العربى فى السياسة والإدارة والجيش ، وأهملوا العناصر الأجنبية التى إعتنقت الإسلام .

وظهرت فى العصر الأموى مشكلة (الموالى) . وهم المسلمون من غير العرب ، فقد حرمهم الأمويون حقوقهم الاجتماعية والمادية ، والوظائف العامة . والموالى هم أهالى البلاد الأصليون الذين آثروا اعتناق الإسلام ، وكانوا على جانب حضارى كبير ، وبذلك خالف الأمويون تعاليم الإسلام التى تنهى عن التفرقة العنصرية .

والحقيقة أن للموالى فضلاً كبيراً على الحضارة الإسلامية ، فقد ساهمت حضاراتهم القديمة العريقة فى تغذية الحضارة الإسلامية وإنعاشها ، واشتغل الموالى بكل العلوم والآداب والفنون ، ونبغ كثير منهم فى النشاط الفكرى .

وأهمل الأمويون تحقيق المساواة بين عناصر السكان فى العالم الإسلامى ، كما أهملوا حفظ التوازن بين العناصر ، والحضارات ، والطبقات ، وأصحاب المصالح المتعارضة ، مما أدى إلى صراعات حضارية وقومية واجتماعية ، كانت من أبرز عوامل سقوط الدولة الأموية .

إقتبس الأمويون كثيراً من جوانب الحضارات الأجنبية ، الفارسية والرومانية والإغريقية ، ولكنهم أنفوا من مساواة الأجانب بالعرب برغم

أن الإسلام يربطهم برباط الأخوة . وتطور الأمر فى فترات الضعف السياسى فى الدولة الأموية . إلى اضطهاد الموالى . ولذا وقفوا موقف المعارضة الشديدة الدائمة من الدولة الأموية . وانضموا إلى كل الأحزاب والحركات المعارضة للأمويين ، مهما كانت آراؤها . ثم انضموا إلى الدعوة العباسية . وكانوا العامل الأول فى نجاحها . وفى إقامة الدولة العباسية . فقد وضع العباسيون برنامجاً سياسيًا واجتماعيًا للإصلاح . أساسه المساواة بين العرب والموالى .

وكان الموالى الفرس أكثر الموالى اعتزازاً بقوميتهم وحضارتهم الفارسية . وأكثرهم سخطاً على الأمويين ومقاومة لهم ، وعملوا فى أول الأمر من أجل إقامة خلافة علوية ، حتى إذا أخفقت محاولات العلويين . تحول الموالى الفرس إلى الأسرة العباسية .

ووضع العباسيون سياستهم على أساس أن الخليفة يحكم إمبراطورية إسلامية واسعة ، كثير من سكانها من عناصر غير عربية ، ذات تواريخ وحضارات وقوميات خاصة : مما يوجب تحقيق المساواة . ووضع العباسيون سياسة حفظ التوازن بين العناصر والحضارات تجنباً للصراعات القومية والحضارية . وبرغم أن الخلفاء العباسيين عرب قرشيون ، فإنهم اعتزوا بإسلامهم أكثر من اعتزازهم بعروبتهم . فقد واجهوا أعداء الإسلام فى حزم وقوة ، ولم يهتموا كثيراً بمواجهة أعداء القومية العربية . فقد واجه الخلفاء العباسيون جميعاً حركات الزندقة التى

حاولت إحياء العقائد والحضارة الفارسية القديمة ، فى عنف وحزم ، على حين وقف الخلفاء العباسيون موقفاً سلبيًا من حركات العصبية الشعوبية الموجهة ضد العروبة ، فهؤلاء الخلفاء لا يريدون إقحام أنفسهم فى ذلك الصراع الشعوبى ، الحضارى والفكرى ، القائم بين العناصر المختلفة .

والشعوبية مشتقة من كلمة (شعب) ، وقد فسرها علماء اللغة بأنها الجيل أو الجماعة من الناس ، والشعوبية – تاريخياً – تعصب كل شعب ، وكل عنصر جنسى لنفسه ، ضد الشعوب والعناصر الأخرى .

وتعددت تيارات الشعوبية ، وأهدافها ، واتجاهاتها ، ويرى بعض المؤرخين أن الشعوبية ضد العرب تهدف أولاً إلى الكيد للإسلام وما نبع منه من حضارة ، فالعرب هم الأمة التى ظهرت فيها العقيدة الإسلامية ، وهم الذين حملوا لواء الحضارة الإسلامية إلى أرجاء العالم الوسيط . وكانت هناك شعوب حانقة على الفتح العربى الذى أفقدها قوميتها وإستقلالها ، وشخصيتها الحضارية ، فاتخذ عداؤها شكلاً شعوبيًا . كما كان هناك الفرس المجوس الحاقدون على الإسلام الذى أدى إلى تضاؤل العقائد المجوسية ، التى يعتبرونها رمزاً للقومية وللحضارة الفارسية . ولذا وجهوا سهامهم الغادرة إلى العرب ، والعروبة ، والحضارة الإسلامية .

وكان الفرس أكثر العناصر الجنسية ممارسة للشعوبية . فقد كان

بعضهم يحقد على العرب لقضائهم على الدولة والحضارة الفارسية ، وازداد الفرس غروراً حين ساهموا فى إسقاط الدولة الأموية ، وهى دولة عربية ، وفى إقامة الدولة العباسية التى اعتمدت فى مائة السنة الأولى من عهدها على الفرس فى السياسة والإدارة والحضارة . وغذّى هذا الغرور الفارسى روح الاستيلاء والكبرياء والشعوبية .

واختلفت اتجاهات الشعوبيين الفرس ، فرأى بعضهم إقامة دولة فارسية جديدة فى ثوب إسلامى ، تكون بعثاً للدولة الفارسية القديمة وحضارتها العريقة . وقد حاول الفرس السيطرة الكاملة على الدولة العباسية ، حتى تكون هى الدولة الفارسية الإسلامية المنشودة ، وأخفقت المحاولات ، نتيجة مواجهة الخلفاء العباسيين لهذه المحاولات حرصاً منهم على سياسة حفظ التوازن بين العناصر المختلفة . ولذا اتجه بعض الفرس إلى إسقاط الخلافة العباسية ، وإلى إقامة خلافة علوية ، قد تكون أسلس قياداً فتتحقق آمال الفرس فى النفوذ الكامل .

ورأى بعض الفرس المجوس إقامة دولة جديدة تمتزج فيها تعاليم الإسلام وحضارته ، وتعاليم المجوسية وأفكارها . ولما كان العرب فى رأيهم هم حفظة الإسلام وحملة لواء الحضارة الإسلامية فلذا كان عليهم هدم الأمة العربية ، فينهار الأساس العربى الذى قام الإسلام عليه .

وتكاتف الفرس ، باختلاف إتجاهاتهم وأهدافهم ، على توجيه

شعوبيتهم . إلى العرب ، وظهرت كتب (مثالب العرب) تبرز نقائص العرب ، ولم يجد الفرس مجالاً غير عرض أحوال العرب فى الجاهلية . وما كانوا عليه من وثنية وحضارة بدوية ، كما أبرزوا صور مقاومة العرب للإسلام وسوء معاملتهم للرسول ، ليثبتوا أن العرب غير جديرين بالرسالة السماوية التى نزلت فى بلادهم . كما ظهرت كتب (مناقب العجم) توضح محامد الفرس ، وعراقة حضارتهم ، وأمجاد تاريخهم السالف . وتبرز تفوقهم الحضارى على العرب .

وكانت شعوبية الفرس خطراً على الدين والتاريخ ، فقد زيفوا كثيراً من الأحاديث النبوية التى توصى العرب بالعجم . وتبرز فضائل الفرس وجهودهم وزيفوا أيضاً بعض حقائق التاريخ للإساءة إلى العرب ، واستفادوا كثيراً من شخصية الصحابى الجليل سلمان الفارسى ، ووضعوه فوق سائر الصحابة ، وأبرزوا فكرة الخندق التى اقترحها ، وكيف أنقذت الإسلام والمسلمين من مصير مظلم . وانبرى الشعراء الشعوبيون إلى هجاء العرب ، وامتداح الفرس ولجأ الشعوبيون إلى (التأويل) ، فأوّلوا الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والحقائق التاريخية ، لتتفق مع أهدافهم الشعوبية .

وكان العرب مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم ، فخاضوا أيضاً ميادين الشعوبية . فكانت هناك أيضاً كتب (مناقب العرب) ، وفيها يبرز العرب تاريخهم ، ويعتزون على سائر الشعوب بأن الله عز وجل اختار

خاتم رسله من بين العرب ، واختار اللغة العربية لتكون لغة آخر كتبه السماوية . كما أن العرب هم المسلمون الأوائل ، وهم حملة لواء الإسلام إلى سائر الشعوب . ويفخر العرب بأنهم هم الذين أخرجوا الأمة الفارسية من ظلمات المجوسية إلى أنوار الحضارة الإسلامية .

ويبدو أن الخليفة العباسى الثامن المعتصم قد ضاق بهذا الصراع الشعوبى بين العرب والفرس ، فرأى التحول عن سياسة أسلافه فى الاعتماد الكامل على الفرس فى الحكم ، ولم يكن ممكناً الاعتماد على العرب ، فالعباسيون يعتقدون أن ولاء العرب موجه نحو أعدائهم الأمويين ، ولذا بدأ المعتصم سياسة الاعتماد على الأتراك . وهنا هدأت ثورة الشعوبية بين العرب والفرس ، وقد رأى الفريقان التهادن والاتحاد لمواجهة المنافس الجديد ، أى العنصر التركى . وبدأت مرحلة جديدة من الشعوبية ؛ يواجه العرب والفرس معاً الأتراك الذين استبدوا بالسلطة فى الدولة العباسية ، فبدأ عهد نفوذ الأتراك .

وفى الحقيقة ، لم تستفد الحضارة الإسلامية من هؤلاء الأتراك ، فليس لهم حضارة قديمة ذات شأن بحيث يغذون بها الحضارة الإسلامية . بل إتصف الأتراك بالجلافة وغلظة الطباع وبداوة الحضارة . فى حين إستفادت الحضارة الإسلامية الكثير من الفرس الذين كان لهم حضارة عريقة قديمة ، قدموا جوانب كثيرة منها للحضارة الإسلامية .

ولم يتدخل الخلفاء العباسيون فى وقف هذه التيارات الشعوبية التى

تفتت وحدة المجتمع الإسلامي ، وربما ظن بعضهم أنهم يستفيدون من هذه الصراعات لدعم سلطتهم . فقد حاول كل شعب الفوز بتأييد الخليفة . ولكن هذه الشعوبية لا شك فى أنها عرقلت الامتزاج بين الشعوب والحضارات والثقافات ، وأدت الشعوبية الفارسية إلى وقف حركة التقريب ، فاحتفظ الفرس بحضارتهم ولغتهم ، ولا يزالون كذلك حتى اليوم .

الزندقة :

وإذا كانت تيارات الشعوبية لها خطورتها على الإسلام والعروبة والحضارة الإسلامية ، فقد كانت الزندقة أكثر خطورة ، وأعظم أثراً . وكانت الزندقة موجهة إلى الإسلام وحضارته أكثر منها موجهة ضد العروبة . ولذا واجهها جميع الخلفاء العباسيين فى عنف وبأس ، وكافحوها بكل الوسائل ، العسكرية ، والسلمية ، والفكرية .

إختلف المؤرخون فى تعريف (الزندقة) اختلافاً كبيرا ، مع اتفاقهم التام على خطورتها على الإسلام . فبعض المؤرخين ينظرون إلى الزنادقة على أنهم الشعوبيون الفرس ، أو المجوس الفرس . ورأوا أن الزندقة هى محاولة إحياء العقائد المجوسية ، وبعث الحضارة الفارسية القديمة . ورأى بعضهم أنها دعوة إلى حرية اجتماعية تنطلق إلى أبعد مدى ، وراء ستار الحضارة والتطور ، لتصل إلى حد الفوضى الاجتماعية ، ويرى فريق ثالث

أنها حركة مزج أو ملاءمة بين الحضارة الإسلامية وتعاليم المجوسية .

ونحن ندرك خطورة الزندقة إذا علمنا أنها تعدّت نطاق الفرس لتمتد إلى العرب ، بل إلى بعض وزراء العباسيين ، بل إلى بعض بنى هاشم . ويزداد إدراكنا لخطورة الزندقة إذا علمنا جوهر تعاليم فرقتى المانوية والمزدكية المجوسيتين ، وهى التعاليم التى عادت إلى الظهور فى العصر العباسى واختفت وراء اسم (الزندقة) ، وانتشرت أفكارها فى المجتمعات العباسية .

والمانوية نسبة إلى (مانى) أحد الفلاسفة الفرس ، ويعتبره أتباعه نبيًّا ، وخلاصة أفكاره ، هى إعتقاده بأن وجود الإنسان على هذه الأرض جناية عليه ، ومادام الفناء هو نهاية العالم والحياة ، فعلى الإنسان أن يتعجل الفناء تجنباً للشقاء . ولذا فهو ينهى أتباعه عن الزواج والإنجاب ، ويدعوهم إلى الرهبنة وعدم العمل والإنتاج ، فأفكاره تشاؤمية تهدم المجتمع .

أما (المزدكية) فنسبة إلى (مزدك) وهو أيضاً فى نظر أتباعه نبى . وجوهر تعاليمه أن المال والنساء هما أصل الصراع بين البشر ، نتيجة سوء التوزيع وإختلاف نصيب كل فرد ، ولذا فهو يجعلها مشاعاً بين البشر ، وبذلك يهدم مزدك الأسرة والأخلاق ، والقيم الروحية والاجتماعية .

وقد حارب أكاسرة الفرس مذهبى مانى ومزدك ، وانتهت حياتهما بالقتل ، وتتبع الأكاسرة أنصارهما بالتنكيل . وعادت تعاليم المانوية

والمزدكية إلى الظهور فى العصر العباسى الأول ، واعتنقها ألوف من الناس ، والأغلبية من الفرس ، والأقلية من العرب . فأصبح من واجب الخلفاء العباسيين مواجهة هؤلاء الزنادقة ، دفاعاً عن الإسلام والحضارة الإسلامية . فهى دولة إسلامية تقوم على شرائع الإسلام ، وكل محاولة لهدم الإسلام هدم لأسس الدولة وكيانها . أيضاً ولذا نظر الخلفاء العباسيون إلى الزنادقة على أنهم أعداء سياسيون للدولة ، إلى جانب كونهم أعداء للإسلام وحضارته .

واتخذت الزندقة صوراً إيجابية وسلبية ، أما الصور الإيجابية ، فهى قيام حركات زندقة ثورية مسلحة ، أصبحت حلقات فى سلسلة طويلة ، شهدتها عهود الخلفاء العباسيين الأوائل ، حتى عهد الخليفة العباسى الثامن المعتصم . وقامت هذه الحركات المسلحة فى الأطراف الشرقية من الدولة العباسية . وبعث الخلفاء جيوشاً ضخمة ، نجحت بعد جهود طويلة مريرة ، فى القضاء عليها .

أما الصور السلبية ، فكانت أخطر من الثورات المسلحة . فقد اندس الزنادقة بين عناصر المجتمعات ، فى كثير من المدن ، ينفثون سمومهم الإلحادية والإباحية الفوضوية دون الإفصاح عن حقيقتهم ، وهى دعوة فردية من الصعب على الحكومة تتبعها . وأنشأ العباسيون (ديوان الزندقة) ، وهو جهاز كبير ، يضم فريقين من الشرطة ورجال المخابرات لتتبع الزنادقة فى كل مكان ، والقبض عليهم ، ثم عقد محاكمات علنية

تحضرها الجماهير . ثم عقابهم بعد الإدانة أشد العقاب العلني . كما يضم هذا الجهاز أيضاً عدداً من العلماء والفقهاء ، مهمتهم عقد مجالس علمية لمناقشة الزنادقة فى تعاليمهم ودحض آرائهم الباطلة ، وتأليف كتب للرد على ضلالات الزنادقة ، ونجح الخلفاء العباسيون بعد جهود طويلة شاقة فى القضاء على روح الزندقة .

الخطر المغولى :

المغول فى الأصل قبائل رعوية بدوية ، موطنها الأصلى وسط آسيا ، وحضارتها بدائية فطرية ، وعقائدها وثنية ، وكثيراً ما ينقطع المطر سنوات متصلة عن أرضهم فتنعدم المراعى ، ويتجه المغول إلى الغزو ، والسلب والنهب ، فكانوا يغيرون على المدن المجاورة لهم ، يرتكبون أعمال العنف والإرهاب . ولم يكن غزوهم من أجل نشر عقيدة أو فكرة أو حضارة ، إنما هدفهم التخريب والتدمير ، فقد رسخت فى أذهانهم فكرة خبيثة ، وهى أن يحيلوا المدن العامرة والأراضى الخصبة إلى الصورة الرعوية البدائية التى يشهدونها فى بيئتهم وفى أوطانهم الأولى فى وسط آسيا .

وكان هؤلاء المغول قبائل وثنية متفرقة متنابذة ، وظلوا على هذه الصورة المتفرقة ، إلى أن نجح (جنكيزخان) فى توحيد صفوف المغول ، وكون منهم دولة ذات طابع عسكرى عدوانى ، واتجه جنكيزخان نحو الشرق لغزو الصين فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم نقل المغول

نشاطهم العسكرى إلى غربى آسيا . ثم شرقى أوربا ومنطقة الشرق العربى . واتخذ غزوهم دائما الطابع الحربى البدوى .

وضع جنكيزخان دستورا للمغول سماه (اليساق) أو (الياسا) . يتعارض فى مبادئه وكل الأديان السماوية . والقيم الاجتماعية والخلقية . مما جعل المغول ليس خطرا على الحضارة الإسلامية فحسب . بل على كل العقائد والحضارات في العالم . فجاء فى هذا الدستور (فليعاون كل واحد منا الآخر ولننقض على سائر الأجناس) . وهى دعوة عنصرية . تجعل المغول فوق كل الأجناس . فالمغول لا يطمعون فى السيطرة على العالم كله فحسب . بل أرادوا إبادة سائر الأجناس . والقضاء على حضاراتهم . ويسمح دستور المغول بالاباحية والفوضى الاجتماعية والخلقية . ويحطم الأسرة . ويلغى شخصية الفرد تماما . ويتدخل الدستور فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية الصغيرة . وفى حياة الأفراد الخاصة .

قامت دولة المغول على أسس عسكرية عدوانية . ولم تقم كغيرها من الدول على أسس حضارية . وبث السلاطين والقادة فى جنودهم روح الحقد وكراهية غيرهم . وشجعوهم على العنف والقسوة والانتقام . وسمحوا لهم بالتدمير والتخريب والقتل والتعذيب . واعتمدت قوة الدولة على قوة الجيش . حتى إذا ضعف الجيش انهارت الدولة . وأدت بداوة المغول إلى عنفهم وغلظتهم . وفى الحقيقة . حاز المغول -- فى أول الأمر

انتصارات واسعة . إذ اكتسحوا العالم الإسلامى . من وسط آسيا إلى جنوبى الشام . وكان العامل الأول فى هذه الانتصارات هو سياسة العنف والإرهاب . التى أفزعت سكان المدن الإسلامية فسارعوا إلى التسليم . ومن عوامل الانتصار أيضاً اهتمام المغول بوسائل الدعاية والإعلام . فكانوا حين يعزمون على مواجهة مدينة إسلامية يرسلون إليها بعض المغول الذين يندسون بين أهلها . يشيعون قوة المغول . ويزعمون أنهم (القوة التى لا تقهر) فتكون هذه الحرب النفسية من عوامل انهيار مقاومة تلك المدينة . كما كان المغول يشترون ذمم بعض الحاكمين والقادة بالأموال الكثيرة . وبالوعود الكاذبة . فيفتحون أبواب مدنهم أمام الجيش المغولى .

ونجح المغول فى منتصف القرن ١٣ م فى القضاء على الدولة الخوارزمية الإسلامية . والسيطرة على إيران . ثم تطلعوا للقضاء على الدولة العباسية . وكانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف نتيجة سيطرة العناصر الأجنبية على الدولة . ولاشك أن مظاهر الانقسام فى العالم الإسلامى كانت هى العامل الأول لتشجيع المغول على غزو هذا العالم . فلو وحّد العباسيون فى العراق . والأيوبيون والمماليك فى الشام ومصر جهودهم لنجحوا فى صد الزحف المغولى عند أول ابتدائه . ولكن لم تهتم العناصر الأجنبية المسيطرة على الحكم والسياسة فى الدولة العباسية بإعداد القوى الحربية الكفيلة بصد المغول . وكانت الدولة العباسية قد ضعفت

نتيجة صراع القوميات والحضارات العربية والفارسية والتركية .

. وسقطت الدولة العباسية ، حين استولى المغول على العاصمة بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ويصور المؤرخون سقوط هذه العاصمة الإسلامية تصويراً يبعث على الأسى والألم . ويؤكدون أنه ليست فى التاريخ حادثة أفظع وأسوأ من سقوط بغداد ، فقد خدع المغول الخليفة العباسى فطلبوا منه الخروج إلى خارج بغداد مع أهلها . لإجراء إحصاء ، وهناك قتلوهم جميعاً . فى أشنع فرصة . وأحرق المغول المساجد والكنائس . وقتلوا العلماء والفقهاء . وأباح هولاكو بغداد لجنده ، يقتلون ويسلبون ، وانتهى الأمر بإحراق بغداد كلها . وألقى المغول بالكتب فى نهر دجلة ليكونوا منها جسرين لعبور خيولهم . فضاع التراث الحضارى للآباء والأجداد . ولا شك أن هذا الحدث كان ضربة عنيفة للحضارة الإسلامية والفكر العربى . وقد حفظت مصر التراث الحضارى والفكرى للعرب وللمسلمين . إذ نجت مصر من الغزو المغولى . فكان ما فيها من كتب هو الذخيرة الفكرية والحضارية للأجيال الآتية .

. - بدأ اجتياح المغول لمدن الشام سنة ١٢٥٩ م ، ودمر المغول التراث الحضارى العربى والإسلامى ، ووصلوا إلى قرب مدينة غزة فى فلسطين ، وتولت مصر مهمة إنقاذ الحضارة الإسلامية ، بل إنقاذ الحضارة العالمية ، فقد كان المغول يعزمون على المضى فى زحفهم فى شمالى إفريقية ثم القارة الأوربية . ونجح الجيش المصرى فى إلحاق هزيمة

ساحقة فاصلة بالمغول فى (عين جالوت) فى ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وبدأ انحسار الخطر المغولى عن بلاد الشام . ومالبث فريق من المغول أن اعتنق الإسلام ، وتحضروا بالحضارة الإسلامية ، وقامت عدة دول للمغول على أسس حضارية إسلامية .

الخطر الصليبى :

بدأت الحملات الصليبية فى العصر الفاطمى سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٦ م) وانتهت فى عهد المماليك سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) ، وهى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق العربى ، وهى الصورة الأولى من الصور الاستعمارية التى شهدتها القرون التالية . وهى أيضاً صدام بين الشرق والغرب ، وصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأوربية .

ظهرت أبحاث تاريخية جديدة فى أوربا ، تدرس الأسباب الحقيقية للحملات الصليبية على الشرق العربى ، صححت كثيرا من الآراء القديمة الخاطئة . فقد كانت هذه الآراء تمثل روح التعصب الدينى السائدة فى العصور الوسطى . وكتب المؤرخون الغربيون تاريخ هذه العصور بأقلام متعصبة .

ليس هنا مجال لذكر أسباب الحملات الصليبية على الشرق العربى ، وكانت هناك عوامل كثيرة : سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، ولكنها استترت كلها وراء ستار الدين ، وإن لم يكن الدافع الحقيقى . وهذه

الحملات الصليبية هى الصورة القديمة للأطماع الأوربية التى شهدناها فى التاريخ الحديث من أجل كسب مناطق النفوذ . وقد اختفى المستعمرون فى التاريخ الحديث خلف ألفاظ (الانتداب) أو (الوصاية) . واختفى الصليبيون وراء ستار (الدين) . وصوروا هذه الحروب الاستعمارية على أنها حرب بين الإسلام والمسيحية . والدين برىء منهم ومن أطماعهم وعدوانهم .

وقد اعترف معظم المؤرخين الأوربيين المحدثين بحقيقة دوافع الجملات الصليبية ، وفى مقدمتهم المستشرق (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) ، الذى قال : « نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفس حمية ، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله . فقد كان العبيد يطمعون فى فك رقابهم ، وغدا أبناء الأسر الذين حرموا الميراث يطمعون فى رغد العيش ، وأصاب القوم نوبة حادة من الجنون ، فرغب الملوك والأمراء والعبيد والرهبان والنساء وجميع الناس . فى الزحف ، وكأن أوربا تنقض على آسيا . . . » .

وأصبحت الحملات الصليبية المجنونة تهدد الحضارة الإسلامية ، فقد أعمل الصليبيون التخريب والتدمير فى مدن الشام . وأحرقوا المساجد والمكتبات وخاصة دار الحكمة فى طرابلس ، وكان فيها نحو مائة ألف كتاب . ولم يكن لهذه الحملات الصليبية أهداف حضارية . أو أبعاد ثابتة ودائمة ، بل كانت نتيجة حماسة سريعة مؤقتة ، وتعصب دينى ،

وأطماع سياسية واقتصادية . والحروب إنما تقوم من أجل التحرير . أو نشر حضارة . أو الرقى بالشعوب . أما الصليبيون فلم يكن لهم هدف إلا التخريب والتدمير وسفك الدماء . باعتراف المؤرخين الأوربيين أنفسهم . ونذكر هنا – على سبيل المثال – رأى المؤرخ (ستانلى لينبول) حيث يقول : تحول الصليبيون عن أغراضهم الأولى التى قدموا إلى الشرق من أجلها . فانشغلت قواتهم بالسلب والنهب وإيذاء المسلمين المسالمين .

لم يستفد الشرق العربى شيئاً من قدوم الصليبيين ، بل لحق به الخراب والدمار . وخالف الصليبيون كل ما تأمر به المسيحية من شفقة وإحسان ورحمة . ولكن إقامة الصليبيين الطويلة ، وهى نحو قرنين ، فى الشرق العربى ، جعلتهم يتأثرون بالحضارة والأخلاق الإسلامية ، مما خفف قليلاً من وحشيتهم وقسوتهم . وأقبل بعض الصليبيين على اعتناق الإسلام ، وتحدث عنهم بالتفصيل المستشرق (توماس أرنولد) فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام) فى فصل بعنوان (حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين) ، وقد بلغ عددهم فى مصر فقط خمسة وعشرين ألفا .

أثرت الحروب الصليبية فى تاريخ أوربا وحضارتها فقد ضعف النظام الاقتصادى الذى كان أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية الأوربية . وتطورت النظم الاقتصادية ، وازدادت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، ونشطت المصارف ، وتحسنت طرق المواصلات البرية والبحرية . وكانت الحروب الصليبية ، صداماً عسكريًا ، والتقاءً

حضاريًا . بين العالم الإسلامى والعالم الأوربى المسيحى . وانتقلت الحضارة الإسلامية إلى كثير من أرجاء أوربا .

تعلم الأوربيون من المسلمين طرق الزراعة ، ووسائل التجارة ، وأساليب الصناعة ، فضلاً عن تأثرهم بمعارف الشرق وأخلاقه وفى ذلك يقول المؤرخ (هرنشو) : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من الجند الصليبيين عندما رأوا المسلمين ، الذين ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لاتصح معه المقارنة بينهما .

لم يستفد المسلمون شيئاً ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، إذ نهلوا من منابع الحضارة الإسلامية التى لا تنضب . فقال (جوستاف لوبون) فى كتابه الرائع (حضارة العرب) : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب . وأما الغرب فكان غارقاً فى بحر الهمجية ، ولم يكن عند أولئك البرابرة مايفيد الشرق ولم ينتفع الشرق منهم بشىء فى الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال .

قبل الحروب الصليبية ، كانت الاتصالات بين الشرق والغرب محدودة ، تقتصر على قدوم الحجاج أو التجار المسيحيين إلى فلسطين والشام . وأدت الحروب إلى لقاء حضارى وازدياد معلومات أوربا عن

الشرق الإسلامى ، وأدركوا أن الأمة الإسلامية قد قطعت شوطاً بعيدًا فى ميادين الحضارة ، ورأوا أمة إسلامية قد تحررت من سيطرة رجال الدين ، على عكس الحال فى أوربا . واقتبس الصليبيون الكثير من الحضارة الإسلامية ، وخاصة فى التشكيلات والنظم الحكومية ، وفى نظم الضرائب والاقتصاد ، وفى إنشاء المدارس والجامعات .

وكانت هذه الاقتباسات من الحضارة الإسلامية هى الخطوة الأولى لعصر النهضة فى أوربا ، فقال (لوبون) : إن تأثير الشرق فى حضارة الغرب كان عظيماً جدًا نتيجة للحروب الصليبية ، وكان هذا التأثير فى الفنون والصناعات والتجارة واضحًا . وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيمة باطّراد بين الغرب والشرق وإلى مانشأ عن احتكاك الصليبيين والشرقيين من النمو فى الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش ، وأعدوا النفوس إلى التقدم ، بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوربا تعول عليها ، فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم .

٥ - الحضارة الإسلامية فى العالم المعاصر

العالم الإسلامى جزء من العالم الكبير ، ونحن - المسلمين - نذكر بفخار أننا حملنا لواء دعوة سماوية خالدة . لها رسالة عالمية إنسانية ، تؤمن بالخالق العظيم رب العالمين . وبأن الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة والحسنة ، وبأن البشر سواسية ، لا يتفاوتون إلا بالمواطنة الصالحة وبما هم عليه من تقوى وفضل وصلاح .

والروح الإسلامية العالمية الإنسانية : تدعو فى نفس الوقت إلى حب الوطن ، فهو من الإيمان ، وكما أن الشعور بالوطنية لاينقص من الشعور بحب الأسرة . كذلك الروح العالمية لا تحرم مسلماً الشعور الوطنى أو القومى .

والرسالة الإسلامية العالمية ، تنمو مع نضال المسلمين وكفاحهم ، وتتبلور مع تجاربهم الدائمة المستمرة ، وهى تستهدف إرساء جميع العلاقات الإنسانية على أسس الحق القومى والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة . وهى فى جوهرها تعبير عن إيجابية الحضارة الإسلامية وبعدها عن التعصب والانعزالية ، وتعبير عن حيوية أمة الإسلام . لأن هذه الرسالة تقوم على الأخذ والعطاء فى ميادين الحضارة ، وتتأثر بالتجربة الإنسانية ، وهى تعبير عن معانى وجود الأمة الإسلامية .

ويرى كثير من المفكرين أن الفروق بين الأمم والحضارات فروق عارضة لاتؤدى إلى صدام سياسى وصراع قومى . بل يجب أن تعيش شعوب الأرض فى حب وتعاون تحت راية السلام العالمى .

وأصبح السلام فى القرن العشرين هدفاً حضارياً ، فقد عانت البشرية من دمار الحربين العالميتين ، وأدرك البشر أن قيام حرب ثالثة كفيل بالقضاء على الحضارة . كما أصبح السلام أيضاً ضرورة قومية ، فالمواطن عضو فى وحدة بشرية هى الأمة . والأمة عضو فى وحدة بشرية أكبر هى العالم . وأصبح المجتمع البشرى العالمى يأمل دعم السلام العالمى الدائم ، وتحقيق الرخاء العام .

وبين أبناء الأمة الإسلامية اتجاهات عالمية تتخطى حدود العالم الإسلامى إلى الأخوة فى الأسرة البشرية ، فالإسلام ينادى بأن البشر يمثلون أسرة إنسانية كبيرة يجب أن تعيش فى أمن وسلام . ولقد كان الإسلام أول دعوة عالمية لحقوق الإنسان ، وأول نداء عالمى لتحقيق الحرية والإخاء والمساواة . ولذا واجه المسلمون الأطماع الاستعمارية فى كل أرجاء الأرض ودافعوا عن حقوق الإنسان . وقاوموا العصبية العنصرية والقومية .

والأمة الإسلامية تمر فى لحظات انتقال تاريخى هام ، فقد تركت وراءها رواسب الحكم العثمانى ومؤثرات العصور الوسطى ، وبدأت عصراً زاهراً . تحاول فيه وصل الماضى التليد بالحاضر المجيد ، وتتطلع إلى

المستقبل السعيد ، مستفيدة من قيمها الإسلامية ونظم الإسلام وحضارته التي تدعو إلى التطور والتجديد والتقدم ، وإن الكفاح المشترك الموحد ، ووحدة الأخطار الإلحادية والمادية ، والمصلحة الواحدة فى التكتل ضدّ الأخطار ، تحتم اتحاداً إسلامياً .

ويزعم بعض المستشرقين أن المسلمين يكرهون الأجانب أو غير المسلمين ، وهى مزاعم باطلة . فالمسلمون لا يكرهون الأجانب ، وإنما يأخذون حذرهم من بعض الأجانب نتيجة تجاربهم معهم ، ونتيجة معاناة المسلمين طويلا من الأطماع الاستعمارية الأجنبية ، ونتيجة كيد بعض الأجانب للإسلام وحضارته .

كانت نهضة أوربا نتيجة اقتباس الحضارة الإسلامية ، وخاصة فى بلاد الأندلس ، وخلال الحروب الصليبية . ولكن الفتح العثمانى للعالم الإسلامى أدى إلى نهاية اقتباس الأوربيين من الحضارة الإسلامية ، فقد بدأت فى الدول الإسلامية فترة تأخر حضارى ، ثم بدأ الغزو الحضارى الأوربى للعالم الإسلامى بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر والشام ، ثم بالأطماع الاستعمارية .

وكانت الحضارة الأوربية سلاحاً ذا حدين ، فقد أدت إلى تقدم حضارى فى بعض جوانب حياة المسلمين ، ولكنها حاولت النّيل أحياناً من قيمهم الروحية وتراثهم الاجتماعى .

والعالم الإسلامى لا يزال – برغم انتهاء الاستعمار – يواجه غزوًا

حضارياً ، فما موقف المسلمين من هذه الحضارات الأجنبية ؟

يرى بعض أن يساير المسلمون أوربا وأمريكا فى حضاراتهما لتحقيق التقدم فى العلوم والفنون والآداب . ويبالغ بعض آخر فيرى أن يمتد الاقتباس فيشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

ونسى هؤلاء أن الحضارة الأوربية قامت على أسس الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، وهذه الأسس نفسها تصلح لقيام حضارة جديدة فى العالم الإسلامى فى القرن العشرين أعظم من الحضارات الأوربية والأمريكية .

إننا ندعو المسلمين إلى التمسك بالحضارة الإسلامية ، التى عرف الأجانب لها قدرها فأقبلوا ينهلون منها ، فهى حضارة عريقة قوية زاهرة . وإذا رأينا أننا فى حاجة إلى بعض ألوان الحضارات الأجنبية . فعلينا أن نقتبس ما يتفق مع ديننا وقيمنا وتقاليدنا وحاجاتنا ، وعلينا أيضاً أن نتبع دائماً مبدأ الحياد الإيجابى بين الحضارات المختلفة .

. . . وبعد . . . فهذه هى رسالة العالم الإسلامى فى بعثه الجديد ، فى القرن العشرين ، ونحن – المسلمين – جماعة من البشر آمنت بربها ، رب السموات والأرض . ورب العالمين ، وآمنت برسالتها العالمية الإنسانية ، وتضع يدها فى أيدى المؤمنين ، حتى نمضى جميعاً صفاً واحداً فى الموكب الإنسانى الكبير ، على قدم المساواة ، فى طريق الحرية والإخاء والسلام .

الكتاب القادم :

علم الاجتماع — د . فاروق محمد العادلي

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٦٣٠
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٥١ – X

٩١/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

كان مولد الحضارة الإسلامية فى مكة حين نزل الوحى فى غارحراء يعطى محمداً لواء الحضارة فى العالم بأسره . .

والمؤلف فى هذا العرض [illegible]
الحضارة وانطلاقها نحو العا[illegible]
الحضارات العالمية قديمها وحد[illegible]
مواجهة أعدائها حتى أصبح [illegible]
بين الحضارات المختلفة .

١٠ جـ